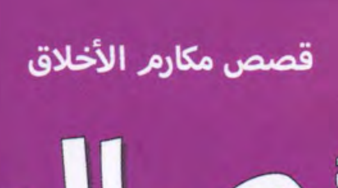
قصص مكارم الأخلاق



روحي دميرال

قصص مكارم الأخلاق

تبرَّع بالدم

نكس مصطفى رأسه واتّجه نحو الميضأة، وكان يحدِّث نفسه قائلًا: فصيلة دمي "B سـالب"، ولكنَّني بدأت أشكّ في نفسي: هل ماتت الإنسـانية داخلي؟ تكاسـلت عن نجدة المحتاج فوجدت المحتاج هـو والـدي فما أعَقَّنِي ولدٍ بوالده اللهمّ اعفُ عني، اللهم تُبْ عليّ وأصلِح حالي، ووجِّه قلبي لفعل الخيرات، وحسِّن خُلُقي، وحبّبني إلى خلقك وحبِّب خلقَك إلى قلبي.


ISBN: 978-975-315-624-0



تبرَّع بالدّمِ


بسم الله الرحمن الرحيم

تبرَّع بالدم

تأليف

روحي دميرال

ترجمة

إنجي عاصم نوحي

تبرّع بالدم

قصص مكارم الأخلاق- ٤

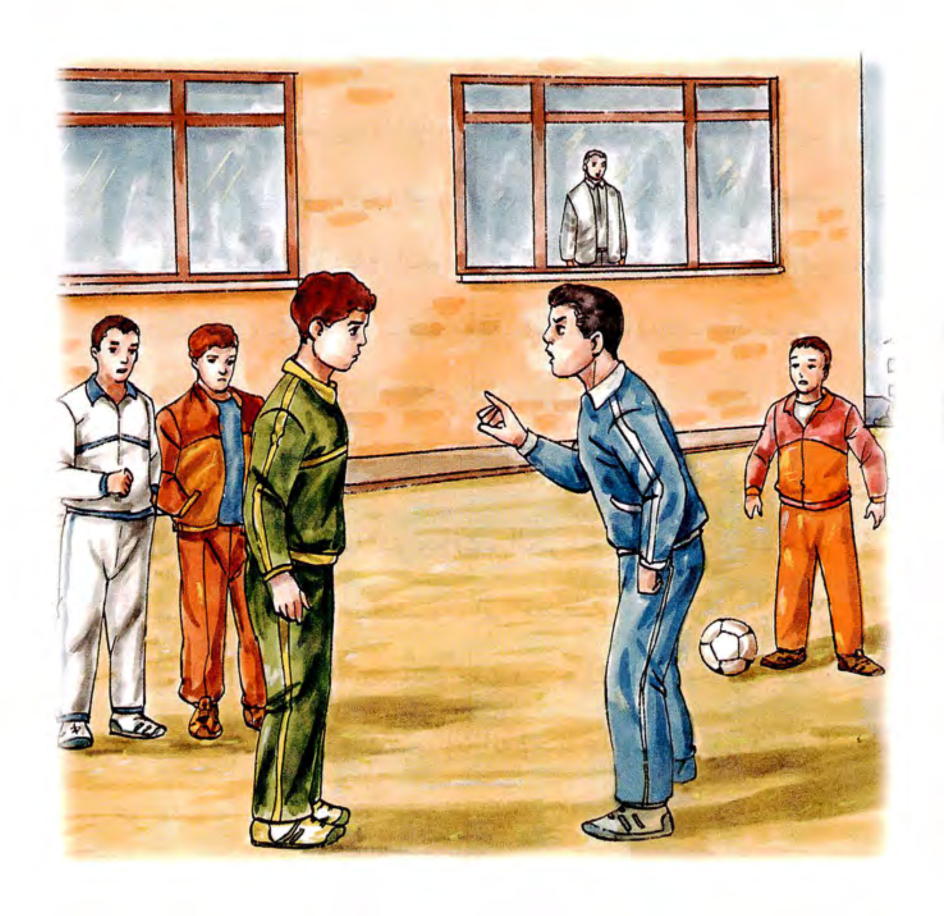
الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير
يوكسل جلبنار
مراجعة
خالد جمال عبد الناصر
تصحيح
د.عبد الجواد محمد الحردان
المخرج الفني
أنكين جيفجي
غلاف وتصميم
ياووز يلماز
رقم الإيداع ISBN:978-975-315-624-0
رقم النشر
500

I IK YAYINLARI
Bulgurlu Mah. Ba cılar Cad. No:1
sküdar – stanbul / Türkiye 34696
Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر
الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي
- خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
5-Tel & Fax: 002 02 26134402
Mobile: 0020 1000780841
E-mail: daralnile@daralnile.com
مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر
Mobile: 0020 1141992888

الفهرس



تبرَّع بالدّمِ

- هلَّا تهدأُ قليلًا يا مصطفى، انظر، الأستاذ يوسف يراقبنا من وراء النافذة ونحن نلعب كرة القدم هنا، إنّها لعبة، وليست معركة حياة أو موت.

لم يهْتَم مصطفى بهذا الكلام، بل إنّ هدفه من اللعب الفوز، فلا بُدَّ أن يحرص عليه، فهو يُعاقِب المخطِئ فورًا، وإذا غضب تجنَّبه أصدقاؤه والفِرَق المنَافِسَة أيضًا؛ ومَنْ لا يُمَرِّرُ الكرةَ في الوقت المناسب أو لا يتَّخِذُ موْقعًا مناسبًا للتَّهْديف ينالُ نصيبَه مِن تَوبيخِه.

وأخيرًا دقَّ الجرس وانْتهت المباراة، فراح الطلاب يُبَدِّلون ملابسَهم في غرفة الملابس، وفيهم المنزعج والهادئ، وجميعهم يتَصَبَّب عَرَقًا، وكانوا يختلسون إلى مصطفى وهم مرهقون، ولا يجرُؤ أحد منهم أن يتحدَّث معه في هذا الأمر، حاول بعض أصدقائه نُصحه أكثرَ من مرَّة، إلا أنَّه إحتد عليهم بالقول، فتوقفوا عن نصحه.

مسح سالم يده ووجهه، وأخذ يراقب مصطفى في رهْبة وخوْف، فهما يجلسان في مقعد واحد، وكان هو حارسَ مرمى فريقِ مصطفى في المباراة التي جَرَتْ قبْل قليل، وسُجِّل هدف في مرماه في بداية المباراة، فغضب مصطفى، وإحتد على سالِم والمعلمُ يشاهدُه، ورغم ذلك لم يردَّ عليه سالمٌ، واستمرَّ في اللعب وهو حزين.

مصطفى طالب في الثالث الإعدادي، مجتهد متفوّق جدًّا، قويّ، ضخْم مقارنةً بزُملائِه في المدرسة، ويعامل أصدقاءه بالحسنَى لكن عندما يلعب كرة القدم تسوء معاملته لهم، فمن لا يرَى أخلاقه في ساحة الملعب يصفه بأنه لطيفٌ ومَثَلٌ أعلى في تجنبه للخلاف مع زملائه في الفصلِ وخارجه.

وعندما خرج الأستاذ يوسف من الدَّرْس الأخير نادى مصطفى وسالمًا:

- هيَّا نشرب معًا كوبًا من الشَّاي ونتَحدَّث قليلًا إن لم تكونا مُسْتَعْجِلَيْن، ما رأيكما؟

مصطفى:

- أستاذي، أريد أن أذهب اليوم إلى البيت مبكِّرًا، فهل يمكن أن نؤجِّل دعوة الشاي إلى غدٍ؟

الأستاذ يوسف متبسمًا:

- حسنًا! تفضَّل، وسأشرب كوب الشاي مع سالم أيضًا، ما رأيك يا سالم؟

أشار سالم برأسه:

- حسنًا.



وانطلق مصطفى إلى المنزل وحده وهو مُتعب، ولا تكاد قدماه تحملانِه؛ وكانت الحقِيبةُ على ظهره تزداد ثقلًا كلما مشى؛ وبينما كان يتابع سيْرَه، أذَّن المؤذِّن لصلاة العصر، فتردَّد بين الذَّهاب إلى المسجد ومواصلة الطريق، وفكَّر قائلًا:

أنـا اليـوم متعـبٌ جِـدًّا، لذالـك سـأصلِّي في البيت، وأسـرع الخُطى، ولما انتهى الأذان سُمع مِن مكبِّرات صوتِ البلديَّة منادٍ ينادي:

- يا إخوة نحتاج دمًا من فصيلة "B سالب" لمريض يُعالج فـي مستشـفى الشـفاء الحكومـي، ونرجـو من الرَّاغبينَ فـى التَّبرع بالدم التوجُّه إلى المركز فورًا.

توقَّف مصطفى، وأغمضَ عينيه، وأصغى للنّداء مرة أخرى، ففصيلةُ دمِه "B سالب"، والمستشفى الذي ذُكِرَ في نهاية الشارع، ثـم واصَـلَ سيرَه، ولما بلغَ باب المنزل سـمع النـداء مرة أخرى، دَقَّ جرسَ المنْزل متردِّدًا، وكان يحاول مقاومة رغبتِه في التوجُّه إلـى مركـز التَّبـرُّع بالـدم، وعندمـا فُتـح البـاب، دخل بسـرعة إلى البيت، وألقى الحقيبةَ عن ظهره، دون أن ينظر ولو إلى وجه أمِّه التي استقبلتْه، وقال عند دخوله:

- كـم أنـا متعـب اليوم يا أمي؟ الأفضـل أن أرتاحَ قليلاً حتى يحين موعد الغداء.



فذهبت أمُّه من خلْفه، وأخذَت الحقيبةَ فعلقتها على شماعة الملابس وقالت:

- يا ولدي، تردّد نداءٌ منذ قليل، يطلب دمًا فورًا لمريض في خَطَر، أليست فصيلة دمِك "B سالب"؟

ألقى مصطفى بنفسه على الوسادة وقال:

- أمي العزيزة، أنا الآن متعَبٌ، لذا لم أذهب إلى المسجد، آه! صحيح، أيقِظيني بعد قليل لأصلِّي.

ألَحَّتْ أمه، وقالت:

- يا بُنَي، المستشفى قريبٌ، وهم يقولون: الدم مطلوب فورًا، أرجوك أن تراعي حرمة الإنسانيّة ولا تتقاعس.

مصطفى بصوت مرتفع:

- أمّي، قلت لك إنَّني مُتْعب! وأنا لسْت الوحيد الذي يحمل فصيلة الدم هذه، فكثيرون سمعوا هذا النداء، وسيذهبون للتبرع بالدم، فلا تحزني.

سكتَتْ أمه، وذهبت إلى المطبخ، فتمدَّد مصطفى وأخذ ينظر إلى السَّقْف، وكان ضميره يؤنِّبه، ثم فكر لحظات وقال في نفسه: أَأَذْهب يا ترى؟ ثم اعتدل جالسًا، وقال في نفسه: لا، عليّ أن أنام قليلًا، وعندما أستيقظ سأصلِّي، ثم أذهب لأتبرَّع بالدم.

وبينما كان يُغمِض عينيه، تردَّد النداء مرَّة أخرى عبْرَ المكبِّرات:

- يا إخوة، فصيلة دمًا "B سالب" لمريض يُعالَج في مستشفى الشفاء الحكوميّ.

استغرق مصطفى في النَّوم، دقَّ الجرس طويلًا، فخرجت السيدة مروة من المطبخ، وأسرعَت نحو الصَّالة، فوجدت ولدها نائمًا، فذهبت لتفتح الباب، وكان الجرس يدقُّ بشدةٍ، فلم تَحْتمل، ونادت:

- ما هذا؟ لِمَ كلّ هذا الرّنين! ها أنا قادمة.

فتحَت الباب، فتفاجأت بسالِم، فقالت:

- ماذا جرى يا سالم؟

كان سالمٌ يتَصَبَّب عرقًا، وأنْفاسه تتقطّع، فقال:

- خالة مروة، أدركيني.

- ماذا حدث يا ولدي؟ قُلْ، أخبرني ماذا حدث!

- العمّ صادق.

_ ما لَه يا بُنيّ؟!

_ نُقِل إلى المستشفى.

صعقت الخالة مروة ولم تستطع أن تقول أيّ شيء.

سالم:

- كان يسير على رصيف الحيِّ المجاور، فسقط على رأسه حجر من مبنى أَثَرِيّ هائر، وهو الآن في المستشفى، هيًّا أَسْرِعِي، فإصابته خطيرة جدًّا.

استيْقظ مصطفى على صوت الضَّجيج، ولم يسمع غير كلمات سالمٍ الأخيرة، فهبَّ مسرِعًا نحو الباب:

- وا أبتاه!

راح مصطفى يجري نحو المستشفى، وتقدّم على أمِّه وعلى سالِم، ولما وصل أخذ يتلَفَّت هنا وهناك، وكالمجنون:

- أبي، أبي، أين أبي؟ هل رأيتُم أبي؟

لحِق به سالم، فهدَّأه ثم لحقت بهما السيدة مروة.

كان الأستاذ يوسف ينتظر في المستشفى، فلما رآه مصطفى عانقَه ودموعه تسيل قائلًا:

- أين أبي، أين أبي؟



أمسك الأستاذ يوسف بيد مصطفى وقال:

- لا تخَف يا مصطفى، فأبوك الآن في غرفة العَملِيَّات، ومعه الأطباء، المشكلة أنَّه نزَف كثيرًا.

وفاضت عينا السيدة مروة بالدموع، ولسانها لا ينطق إلا بكلمة واحدة:

- اللهم إنى لا أسـألك رد القضاء، بك أسـألك اللطف فيه، اللهم اشف زوجي.

نظر مصطفى إلى الأستاذ يوسف، وتأوَّه قائلًا:

- أستاذي...

فابتسم الأستاذ يوسف، وقال:

- كنّا أنا وسالم نشرب الشّاي في الحديقة، ولما سمعْنا النِّداء أسرعْنا إلى المستشفى، لأنّ فصيلة دمي "B سالب"، ولم أكن أعرف أنَّ المريضَ والدُك، وسالِم هو من أخبرني بذلك.

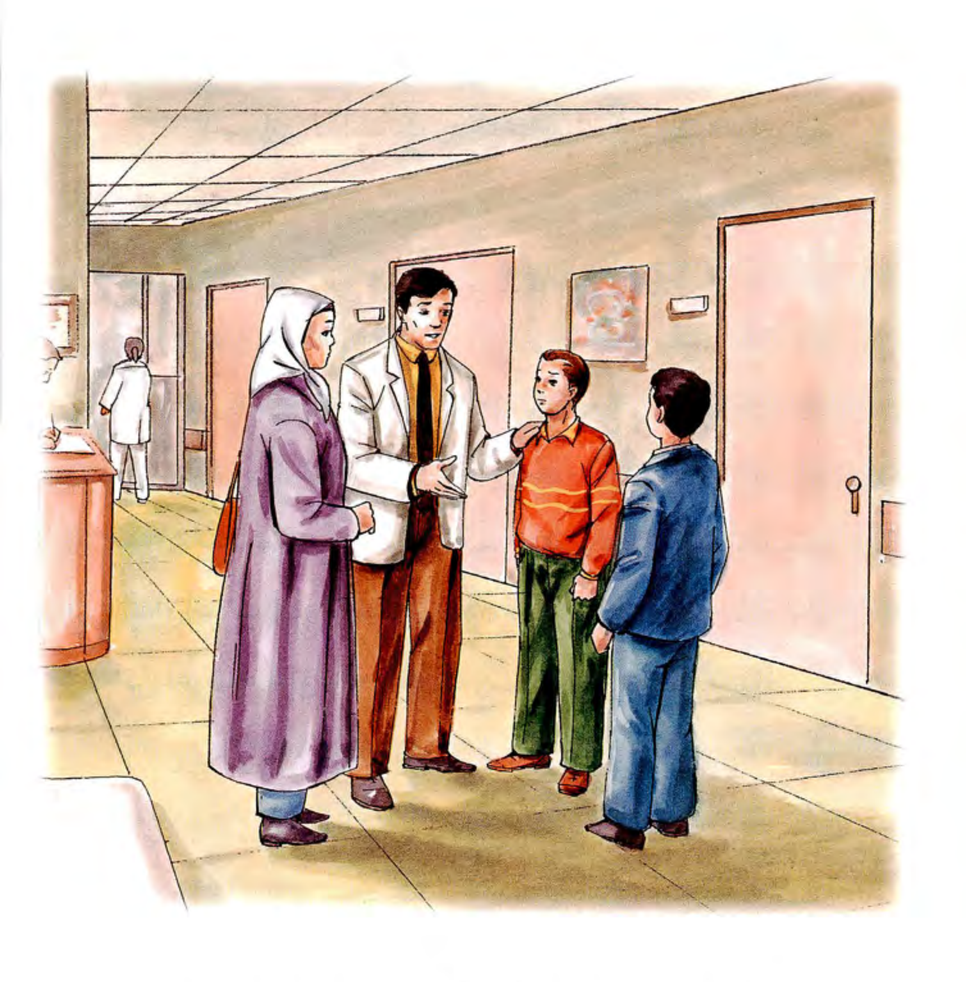
نظر مصطفى إلى سالم، وتذكَّر كلماتٍ أزعجه بها في مباراة الأمس.

وتابع الأستاذ يوسف حديثَه:

- على كل واحد أن يعرفَ فصيلةَ دمِه، فقد يأتي يومٌ نحتاج فيه لمساعدة الآخرين، ولا شكَّ أنَّ خيرَ الناس أنفعُهم للنّاس.

طأطأ مصطفى رأسه، فسأله الأستاذ يوسف:

- صحيح يا مصطفى، ما هي فصيلة دمِك؟



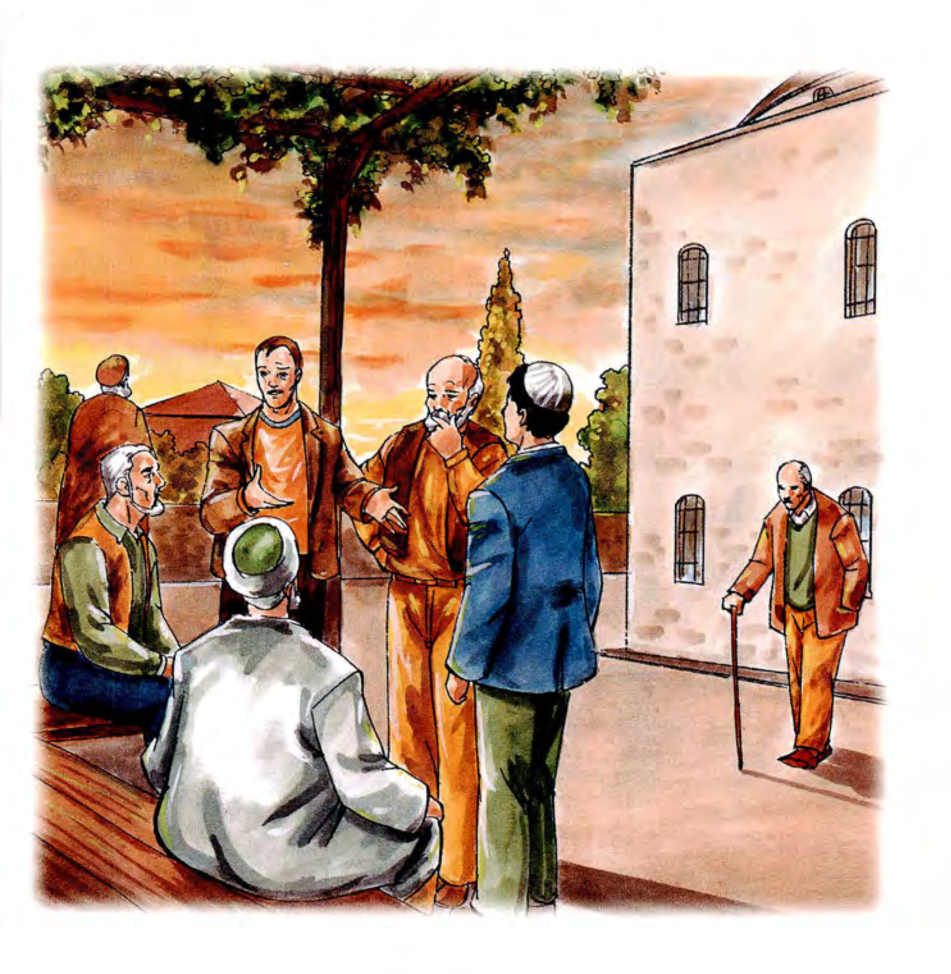
أطرق مصطفى لحظةً، وكأنَّه يتذكر صدى صوت النداء الذي سمعه وهو عائد من المدرسة، ثم انْتَفَض، ولم يجد ما يقوله، وتذكَّر حينئذ أنه لم يصلِّ العصر حتى الآن:

- ها، هل أجد هنا مُصلّى، لأصلي فيه العصر؟

أجابتْه ممرضةٌ مرّت بجانبه:

- في الطابق الثاني مُصلّى صغير، يمكن أن تصلِّي فيه، وإن لم تكن متوضئًا فهناك ميْضَأة بجانبه.

نكس مصطفى رأسه واتّجه نحو الميضأة، وكان يحدِّث نفسه قائلًا: فصيلة دمي "B سالب"، ولكنّني بدأت أشكّ في نفسي: هل ماتت الإنسانية داخلي! تكاسلت عن نجدة المحتاج فوجدت المحتاج هو والدي، فما أعَقَّني من ولدٍ لوالده، اللهمَّ اعفُ عني، اللهم تُبْ عليّ وأصلِح حالي، ووجِّه قلبي لفعل الخيرات، وحسِّن خُلُقي، وحبّبني إلى خلقك وحبِّب خلقَك إلى قلبي.



مفتاح الكنز

بعد أن خرج أهل القرية من صلاة الفجر وجلسوا تحت العريش أمام المسجد، وأشرقت الشمس من خلف البيوتِ، فبدأ الناس بالذَّهاب إلى الحقل مبكِّرًا، ليَسْتَنْشِقوا نسمات الربيع،

ونَسيم الصَّباح، وكان من يجلس تحت العريش يتحدَّث عن بقاء مسجد القرية عامًا دون إمام، حتى إنّ أصغرهم سِنًّا كان يعترض على إهْمال وزارة الأوقاف لإيجاد حلٍّ لمشكلاتهم، وكان فيهم رجل ينصحهم بالصبر.

وكان همّه تهدِئة نفوس الناس، قائلًا لهم:

- لن نظل هكذا بدون إمام أو أذان، لا بُدَّ أنْ يأتي إمامٌ للقريةِ قريبًا إن شاء الله، فاتّهام الآخرين لا يحل المشكلة، فعلينا ألَّا نسئ الظن في احدٍ، وها أنا ذا أحاولُ رفعَ الأذان وإمامتكم في الصلاة ما استطعْت، فاصبروا، فالله أعلمُ بحالنا، فلعلَّ الله يمتحننا بهذا، ولعلَّه ﷻ يقول لنا:

- سأرى مَن هم الذين سيرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، إذا غاب الإمام.

ورغم أنَّ أهل القرية كانوا يعرفون أنَّه على حقٍّ، إلَّا أنَّ أحدًا لم يكن يقبل هذا الوضْع، فلا بدَّ أن يأتي إمامٌ للقرية، يعِظهم ويعلِّمُهم أمور دينِهم.

إن وضع التديّن في القرية لم يكن مبشِّرًا، فالمسجد الذي

كان يكتظ بالمصلِّين لم يعُدْ يُرى فيه الآن إلا قليل من المسنِّين، فأدَّى هذا الحال إلى أن يكون حديث الناس قاصرًا على أمور دنياهم، فالحديث الذي يدور بينهم إمّا عن الجفاف أو الجدْب، وإمّا عن ضعف محصول الحقول.

وأنهى مصطفى النَّحاس حديث مَن تحت العريش بكلامٍ مليء بالأمل والاستبشار، وتفرَّقوا إلى بيوتهم، واحدًا تلو الآخر.

وقرُبَ وقت العصر، فقام علِيّ إحسان من مكانه بصعوبة وكان محدودِبًا من الشيخوخة والتعب طول اليوم، فوضع المعول الثقيل عند قدميه، ونظر إلى حقله الصغير بعين ساخطة، وحدَّث نفسَه قائلًا: هذه الحال لا تبشِّر بخير، يبدو أنَّنا سنَعِيش بقوت يومنا في هذا العام، يا ترى لماذا قلَّت بركة المحْصول؟!

بدأ يتجوّل في الحقل مهْمومًا، وعُبُوس وجهه ينبئك عمّا حلّ به من حُزن، فكان ينْحَني هُنا وهُناك، يتفقّد البصل والبطاطسَ، ثم يحدث نفسه بقلق وهو يهزّ رأسه يمينًا وشِمالًا: لا! الوضع سيِّءٌ أكثر مما تخَيَّلْتُ، سنَموت جوعًا.



وفي هذه الأثناء لفَتَ نظره مصطفى النَّحاس الذي يسير بجوار الحقل، فغمغم قائلًا:

- خير إن شاء الله، ما الذى يجعل هذا الرجل فرِحًا مسرورًا هكذا؟!

حقًّا، لقد كان مصطفى النَّحاس سعيدًا، فكان يخطو خطوات، ثم يتوقَّف، وينظر في الورقة التي بيده، ولما رأى علي إحْسان ينظر إليه نظرةً غريبة، لوَّح له بيده مبتسمًا:

- كان الله في عونك، يا علي إحسان.

- سلَّمك الله، ماذا حدث يا مصطفى؟ ما سبب هذا السرور؟

قال مصطفى النّحاس وهو يشير بورقة في يده:

- وكيف لا أكون سعيدًا، وقد وجدت كنزًا؟

- وجدتَ كنزًا، كنزًا...

لم يستطع عليٌّ أن يتكلم، ولما أفاق من الصَّدمة راح يجري وراء النحاس ويقول:

- ماذا قلْتَ؟ وجدْتَ كنزًا؟

فلم يلتفت إليه، وتَسارَعت خطاه كأنَّه يهرول.

ولما أدرك أنَّه لن يلْحق به توقَّف، وشَخَص ببصره، ووضع يده على خدِّه، وأخذ يفكِّر فيما عليه أن يفعله، وكان النَّحاس قد تَوارَى فلم يَعُد يُرَى.

فرِحت عائلة مصطفى النحاس فرحًا شديدًا، لا سيما الجدَّةُ لطيفة فقد ألحّت في السؤال مرارًا وتكرارًا:

- عزيزي مصطفى، أأنت متأكِّد أنَّ هذا هو مفتاح الكنز؟

فيجيبها الجواب نفسه في كلّ مرَّة:

- زوجتي الحبيبة، أقسم بالله أنَّه هو، آه... لو تعرفين مفتاح أيِّ كنْز هو!

دقَّ الجرس، فاضطربَت الجدة لطيفة ثم التفتت إلى زوجها وقالت:

- من؟

فتبسّم وقال:

- هذا علي إحسان، كنت قد حدّثته عن الكنز أيضًا.

ونفد صبر علي إحسان فراح ينادي:

- مصطفى، أنا بالباب، افتحا.

قال السيد مصطفى لزوجته:



- هيّا يا زوجتي افتحي الباب، ولنَقْتَسِم الكنز معه أيضًا.

فهزَّت الجدة لطيفة رأسها وقالت:

- طبعًا، وبهذا نكون قد فعَلْنا خيرًا، وسأنادي على الجيران

إن شئت.

قطَّبَ مصطفى حاجبَيْه، وقال:

- لا، لا تستعْجلي، أَدْخِلْي علي إحسان الآن، أمَّا الجيران فسندْعوهُم في المساء.

ولما فتحت له الباب دخل وقال:

- أيها النحاس، لا بد أنْ نقْتَسم تلك الخزينة معًا، وأنا راضٍ بنصيْبي.

فقال مصطفى النّحاس:

- اهْدأ، حسَنًا! سنفعل.

جلس علي إحسان، وكان متشوقًا جدًّا للحدث، وأمسك بيد مصطفى النّحاس، وقال:

- ضاقت بي الأرض، وأنت تعلم أن الخشْخاش لم يَنْبت، فلن أستلم ثمن المحصولِ في هذا العام من الدَّولة، وبنيتُ كلّ آمَالِي على إنتاج قليل من البصَل والبطاطس، لكنَّه لا يكفي،

فأنا بحاجة لتلك الخزينة، فأين هي؟ هيَّا، قل بسرعة!

النحاس:

- اهْدأ يا عليّ، اشْرب القهوة أوَّلًا، ثم نتحدَّث في هذا، ولا تحزن، فسيكون ما أردْتَ، وسنَتَقاسَمُ الخزينةَ.

ثم أحْضرَت الجدة لطيفة القهوة، وأخذ الصديقان يشربان ويتبادلان النظراتِ، ومضت ساعة، فخرج علي إحسان من بيت مصطفى فرِحًا، ثمَّ رجع من الطريق الذي جاء منه، وقلبه يرَفْرِف كالطير من شدَّة الفرح، وكلَّما خطا خطواتٍ قليلة قال:

- لا إله إلا الله.

وعندما وصل إلى باب الحديقة توقف، وتنفَّس الصّعداء، ثمَّ رفعَ عينيه إلى السماء، ودعا:

- اللهم لك الحمد كلّه، ولك الشكر كلّه، فمهما شكرناك على نعمِك فلن نبلغ ما أنت أهله؛ ولستُ أدري كيف أصِف شوقي للقاء أناس يَذْكُرونك، فالبعد عنكَ هو سبب شقائِنا، لقد أضرَّ بنا الطمع وشغلتنا الدنيا الفانية، فتعلَّقنا بها وكأننا سنُعمَّر فيها أبدًا، فاعفُ عنَّا".



ثم أخرج الورقة من جيب صِدْريّته ففتحها، وأخذ يكرر ما كُتب فيها: "لا إله إلا الله مفتاح خزائن الجنة"؛ فهذه بشرى عظيمة ساقها لنا رسولنا ﷺ.

ووصل إلى القرية صباحًا إمام جديد، وتحدَّث مع مصطفى النّحاس، وقد تعارفا من قبلُ تحت العريش، فلما علم بحال أهل

القرية حَزِن كثيرًا، وقال:

- يجب أن يرضى الناس بما قسَمَه الله لهم، وأن يتعلموا القناعة ليرضى الله عنهم، فلا خلود لأحد في دار الفَناء، فلماذا لا نرضى بما قسم الله؟ وإلى متى سنبقى على هذه الحال؟ فحُبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وطلابها لا يشبعون، فالقناعةَ القناعةَ، فهي كنْز لا يَفْنى.

وطال الحديث، فذكر الإمامُ في كلامه حديث الرسول ﷺ: (**لا إله إلا الله مفتاح خزائن الجنة**)، وقال: الدنيا مزرعةُ الآخرة، فمن زرع هنا حصد هناك؛ فما علينا سوى العمل لكسْب خَزائِن الجنَّةِ الكثيرةِ في هذه الدنيا؛ فتأثّر مصطفى كثيرًا بهذه الكلمات وأحضر ورقةً وقلمًا، وكتب الحديث الشريف الذي سمعه من الإمام الجديد "مفتاح الجنة لا إله إلا الله"، ثم انطلق نحو منزله ليبشِّر زوجتَه "الجدةَ لطيفة" بتلك البشرى المقَدَّسَة.

وضع علي إحسان الورقة التي في يده على شفتيه، وقبَّلها، ثم وضعها في جيبه، ونظر إلى الحقل بعيون باسمة، ثم انْحنى وهو يتبسَّم، ومسح ورقة بطاطس بِلُطفٍ، وتذكَّر كلماتٍ نقلها

مصطفى النَّحاس عن الإمام، وراح يكرِّرُ بشفتين تحيط بهما لحية بيضاءُ: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله...

ومنذ ذلك اليوم قلت الشَّكْوى في القرية، وشكروا الله على نعَمه، وعاش الناس ببركة الإيمان في أمن وطمأنينة، وتعلموا من الإمام الجديد أنَّ القناعةَ كنز لا يفنَى.



صنع المعروف يصلح المتلوف

كان الجوُّ لطيفًا ووقتُ الظهيرة قد اقْتَرب، وتطايرت الحشرات، وانطلق طارق في حديقة ملأى بأشجار الخوْخِ، وأخذ يتلفَّت حوله وقد وضع كفَّيه على عينيه ليظلِّلهما من الشمس، حتى استوقفَتْه شجرةُ تين ضخمةٌ، فمضى حتى وقف تحتها، وفكَّر قائلًا: آمل أن يكون أهل هذه الحديقة أَمِّيِّيْن،

لأُحقّق خِطتي ثمَّ أسرع نحو العريش، فانتبه إلى قِدْرٍ سوداء تغلي، ودجاجة في الخُمّ تحت العريش تُحدِّق النظر إليه وكأنها تتعجّب.

قالت السيدة العجوز:

- ما الأمر يا ولدي! هل تبحث عن أحدٍ؟

رفع طارق رأسَه، فرأى عجوزًا تحت العريش:

- جدَّتي أحضرتُ لكِ هذه القدر هديةً، وكنتُ أخذتُها من مُحْسِنٍ يوزّع هدايا للناس.

رفعت العجوز حاجبَيْها ونظرَت إلى طارق، ثم قالَت مُبتسمة:

- ما شاء الله! جزاكم الله خيرًا يا ولدي! أنا لست بحاجة إليها، وماذا أفعل بقدر جديدة وقد تجاوزت السَّبعين أنا وزوجي؟! أعطِها لِمَنْ هم بحاجة إليها.

طارق وهو يتقدَّم نحو السُّلَّم قليلًا:

- تعبْت كثيرًا يا جدَّتي! ولم أَعُد أقدر على السَّيْر أكثر من ذلك، خذيها وأعْطيها لمن هو بحاجة إليها، فهو آخر قدر معي،



أريد أن أعود إلى المدينة بسرعة؛ لأنَّني سأسافر صباحًا.

أطرقت العجوز قليلًا، وهزَّتْ رأسها، ثمَّ نظرت إلى خيمة أهل "فاطمة"، وقالت:

- حسنًا، سوف آخذها وأعطيها لأهل تلك الخيمة؛ فهم فقراء، فسيَسْعدون بها.



صعِد طارق سُلَّم الخَشَب بحذَر، ومدَّ يدَه إلى العجوز قائلًا:

- خُذي القِدْر ووقِّعي على هذه الورقة، لأقدّمها للمدير.

تردَّدتْ العجوز لحظةً، ونظرَت إلى وجه طارق.

فهِمَ طارق الأمر وقال وهو متوتر:

- لا تقْلقي، هذا مُجرَّد إثْبات يُطلب مِنّي عندما أعود للمدينة؛ لأنَّه دليل على استلامه.

اقتربت العجوز من طارق مقدار خطوتين، وقالت:

- حسنًا، لكنّي لا أستطيعُ التَّوقيع؛ لأنّي أُمِّيَّة، وخفَض طارق صوتَه وقال:

- يُمكنك البصمة بإصْبعك هنا.

بصمت العجوز، ولما همَّ طارق بالخروج قالت له العجوز:

- اسْترِحْ قليلًا، فأنت مُرهَق، ولن أتركك حتى أضيِّفَك، انتظرني قليلًا.

ذهبت العجوز إلى الحديقة، وفرح طارق كثيرًا، وما إن اتَّكأ يتأمَّل التِّلالَ حتى أخذه النوم؛ لأنَّه كان مُرهقًا إرهاقًا شديدًا، ثمَّ استيْقظ على صوت الأطْباق والملاعِق، فوجد أمامه مائدة عليها أرز بالقمح المجروش وفوقه لحم دجاج، وبجانبه سلَطة ولَبن رائِب وخبز، وعلى طرَف المائدةِ خوخ وكُمَّثْرى صفراء.

قالت العجوز مُبتسمة:

- لقد غلَبَك النعاسُ، إنَّ نوم ساعةٍ أو ساعتين هنا يعدل نومَ يومٍ كاملٍ في المدينة، تعال واجلس على المائدة يا ولدي! فأنا لديَّ بعض الأعمال، وإذا أردْتَ شيئًا فنادِني.

شاهد طارق السيدة العجوز وهي تنزل على السُّلَّم، فتعجَّبَ كثيرًا ولم ينطق بشيءٍ، ثمَّ نظر إلى الطعام والفاكهة فلم يستطع أن يقاومَ الجوع، جلس على المائدة، وبدأ يأكل، ولما شبع تناول الكُمَّثْرى، ثمَّ فكَّر قائلًا:

- أنا لست إنسانًا طبيعيًّا، لو أنني إنسان لما فعلتُ ما فعلتُ، ثم دعا خُفيةً: اللهم اهدِني الصراط المستقيم.

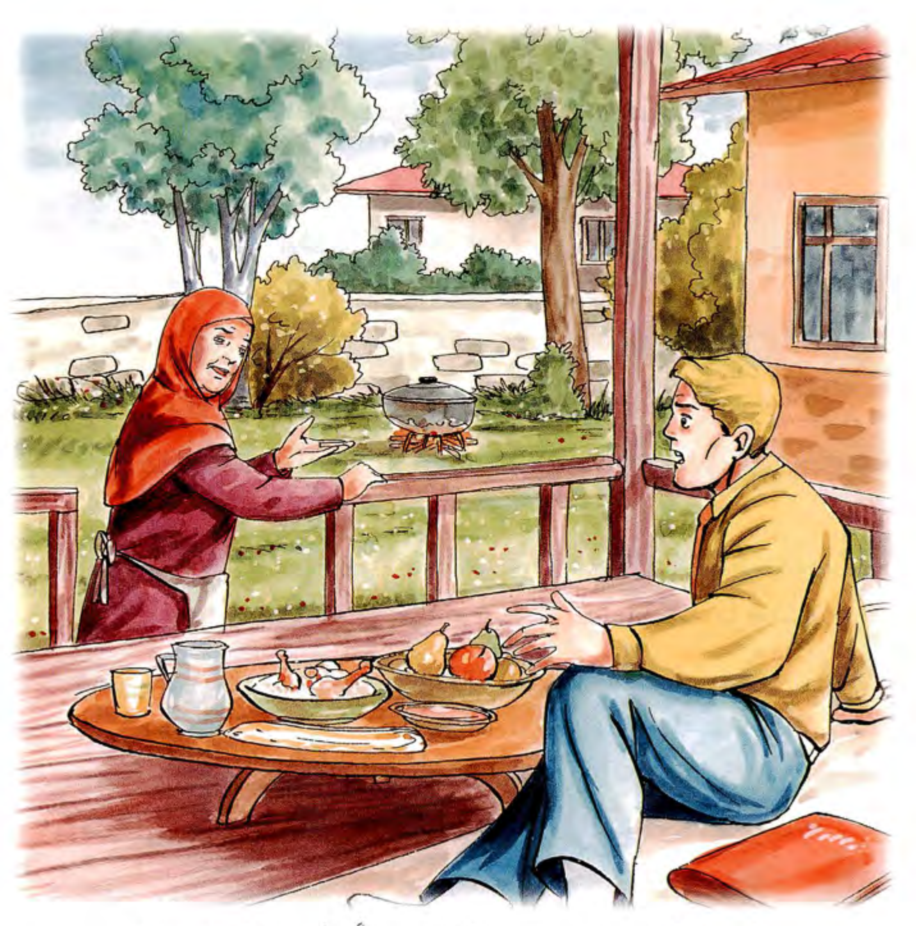
بعد أن شبع طارق نزل من العريش، فوجد العجوز تملأ الدَّلْوَ ماءً، وما إن انتبهت حتى تركت الدلو، وقالت:

- أذاهب أنت يا ولدي؟

- نعم يا جدَّة! أشكرك شكرًا جزيلًا على ضيافتك، وأسأل الله أن يُديم لك الصحة والعافية.

صاحت الجدة من ورائه قائلة:

- انْتظر، انْتظر.



أسرعَتْ نحو العريش، وأخذت سلَّة خُوْخ وأعطتها لطارق

وقالت:

- خذ هذه أيضًا، فلن تجد مثل خُوْخِنا في المدينة، رافقتْك

السَّلامة.



دُهِش طارق وجعل ينظر إلى سلَّة الخوخ وإلى وجه العجوز:

- جزاك الله خيرًا يا جدَّة!

وبينما هو يمشي فكَّر قائلًا:

- إنَّ قلوب هؤلاء الناس طيِّبة، أما أنا فقاس القلب، وضيَّعت عمري بخداع الناس.

نظر إلى الخُمّ، وتذكَّر الدجاجة التي أكلها، فقال مُنفعلاً:

- أين الدجاجة التي رأيتها في الخُمّ يا جدَّة؟

تبسمت الجدَّة وقالت:

- ذبحتها.

- لماذا؟!

- طبختُها.

- قدَّمتِ لي تلك الدجاجة؟!

- نعم، وماذا في ذلك؟! أَلَمْ يعجِبْك الطعامُ؟!

ابتلع طارق رِيقه، وارتعشت يداه، ولم يعُدْ قادرًا على الوقوف، ثم هبط على الأرض ببطء، وهو يتَّكئ بيديه على السَّلَّة، ووضع جبْهته على ركبته.

المرأة العجوز:

- ماذا حدث يا ولدي؟ هل أنت مريضٌ؟

- لست مريضا يا جدّتي! لكنّني تأثّرتُ بِمَا فعلتِه لأجلي، يا لكم من أناس طيّبين!

- لا تخْجل يا ولدي! فقد غادرْت مدينَتك، وجئْت هنا لفعل الخير، فيجب علينا أن نُكرمك.

نهض طارق وهو يحاول أن يُخْفِيَ دموعه:

- جزاكِ الله خيرًا يا جدّة! أُفضِّل أن أغادر الآن.

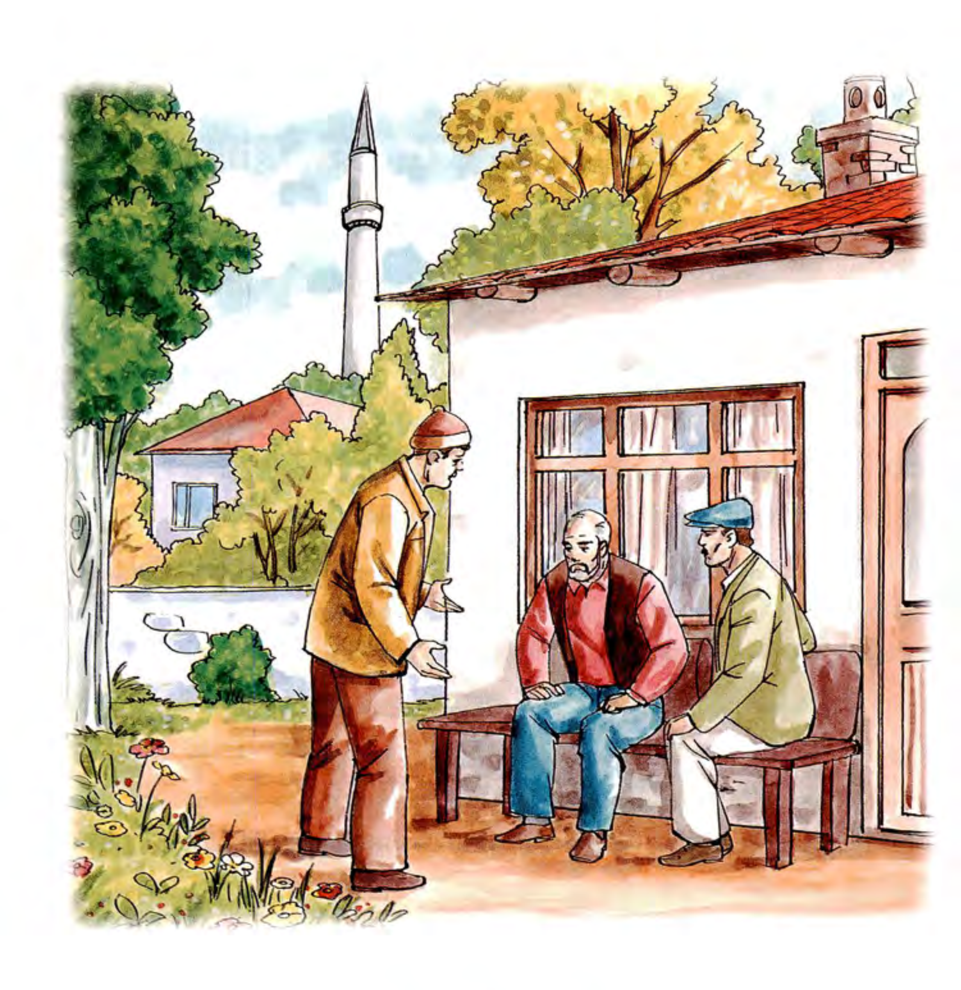
- مع السلامة يا ولدي! لكنّي نسيت أن أسألك عن اسمِك، ما اسمُك يا ولدي؟

- أُدْعى جميل، طاهر، وأسماء أخرى كثيرة في العمل، لكن من الآن فصاعدًا اسمي طارق.

مشى طارق، ووقفت العجوز في حَيرة دون أن تفهم شيئًا من تلك الكلمات، ثمّ أخذَت دلْوَها، واتَّجهَت نحو صُنْبور الماء، وفي هذه الأثناء بدأ طارقٌ يمزّق الأوراق التي وقّع عليها أهل القرية، يقرأ الاسم في كلِّ ورقة ثمّ يُمزّقها، ويردّد العبارات التالية:



- أيُّ هدايا يا جدَّتي؟! فقد جئْت لأسلُبَكم أموالكم وأُدِينَكم بتوقيعاتِكم، ولقد ظَنَنْتكم بسطاء أُمّيِّين، لكنَّكم في الواقع أذْكَى من المُتعلِّمين، أما أنا فقد خُدِعت، وحان الوقت للبحث عن عملٍ شريفٍ، يا إلهي! أنا نادم أشدَّ الندم على ما عملْت من سيئات حتى هذا اليوم، اللهم اغفر لي، وشفِّع فيّ رسولك الذي قال: "**من غشَّنا فليس منَّا**".



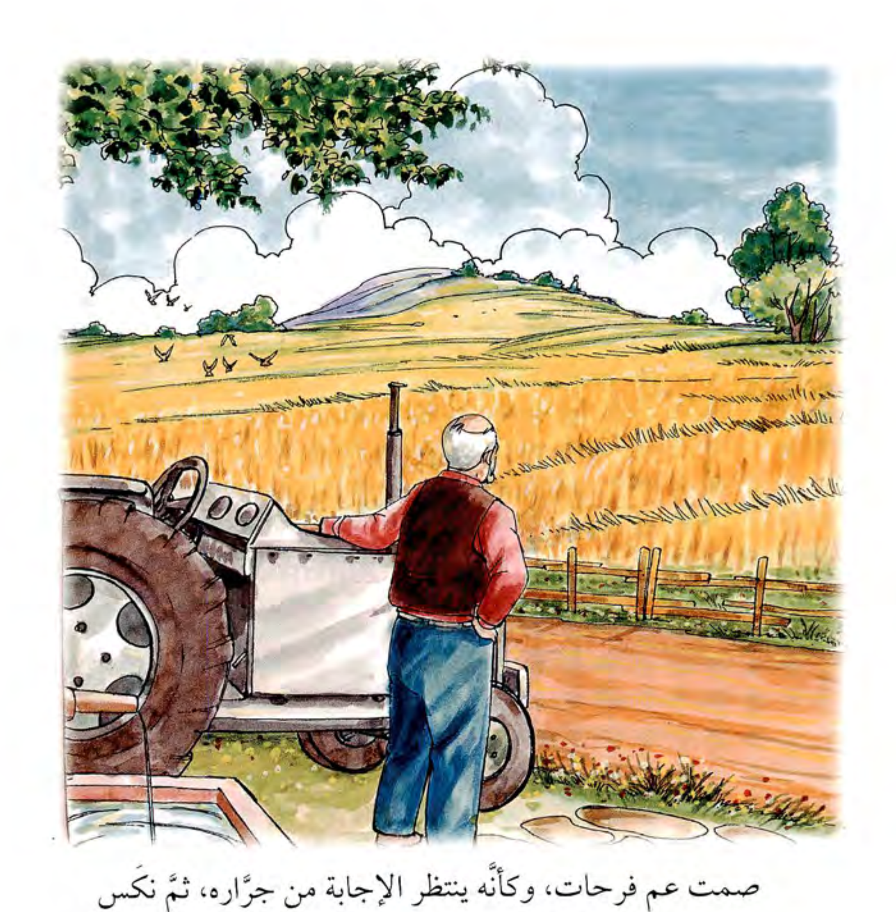
البَرَكَة البَاقِيَة

- مـاذا قلْـتَ يـا عـم فرحـات؟ هـل ينتهـي قمْـحُ هـذا الحقل الكبير إذا أكل الطَّير منه؟! أرى أنَّ ما فعلْتَه لا يليق بك، ولا أدري لماذا تغيَّرْت كلَّ هذا التغيُّر منذ شهرين؟ وكأن عم فرحات الذي

نعرفه قد ذهب، وعاد إلينا في صورة رجل آخر، أين تلك الأيام التي كنْت تأمُرنا فيها بالمعروف؟! أرى أنك اليوم تفعل خلاف ما عهِدناك عليه!

لم يسْمع العمّ فرحات العباراتِ الأخيرة من حديث "رمضان" عندما كان يتحدَّث معه، لكنَّه انتبه عند قوله "لا أدري لماذا تغيَّرْت كلّ هذا التغيّر منذ شهرين؟"، وتذكَّر الحادثة التي حدثَت معه منذ شهرين... كان العم فرحات عائدًا من البلْدة، وعندما وصل إلى المدينة، أوقف الجرَّارَ، ونزل وشرب بيده من صنبور قديم على سَفح صخرة، ثمَّ جلس على تلّ صغير ينظر منه إلى حقله، كان المرج الأخضر -في شهر آذار/مارس- يُغطّي كلَّ مكان، والزُّروع تتَمايل مع الرياح، والمرج الأخضر يموج معها كلَّما هبَّت، وكان العم فرحات يستمتع برؤية هذا المشهد، وعندما نهض ليركب الجرَّار تمتم قائلا:

- علينا أن نُغطِّيَ الزرْع في شهر حزيران/مايو؛ فالطيور إن بقيت تتردَّد على تلك السنابل الخضراءِ فستقضي عليها، ما رأيك يا "صدِّيقة"؟! لا بُدّ من فعل ذلك، خصوصًا بعد أن وصف الطبيب حالتي، أليس كذلك؟



صمت عم فرحات، وكأنَّه ينتظر الإجابة من جرَّاره، ثمَّ نكَس رأسَه، وأسْند جبهتَه على عَجَلَة القيادةِ، والحزن يغمره، ثم قال:

يا صِدِّيقة! تعلمين أنَّ الموت لا يُخيفني أبدًا؛ فالموت جسرٌ أعْبُر منه إلى أحبَّتي، وهناك سنقِف بين يدَي الله، ونرى الأنبياء والأولياء، وأرجو الله أن أجد في صحبتهم أصدقائي المقربين، وأقربائي وزوجتي.

امْتلأت عيناه دمعًا، وتابع كلماتِه المُحزنة: لكنّني سمعْت اليوم كلماتٍ زلْزلَت كياني يا صِدّيقة، إنّني مُصاب بمرض "هَشاشة العظام"، وهذا المرض يزداد كلّما كبِرَت سنّي، صدّقيْني لم أحزن لهذا، لكنّ الذي أحزنني هو أنّني أخاف أن أصل إلى مرحلة أحتاجُ فيها لمساعدة الآخرين.

كان العم فرحات يُخاطب جرّاره القديم باسم زوجتِه المُتوفّاة صِدّيقة، فقد أحبّها حبًّا جمًّا؛ إذ كانت تشاركه في فرحه وحزنه وكلِّ أموره، وقد سمّى الجرّار باسمها بعد موتها ليُشاركه فرحَه وحزنه.

وواصل حديثه مع جراره قائلًا:

- علينا أن نملأ المخْزن بالمحصول من الآن يا صِدّيقة، لئلا نحْتاجَ لأحد في المستقبل، فلنتعلّمْ من النّملة ونخزّن في الصيف للشتاء، وما دمت سألزم الفراش من هذا المرض فلْنُخزّن، ولْنحسب كلّ قرْش ننفقه، وكلّ صغيرة وكبيرة، وقد قدّمنا عطايا كثيرة للمُحتاجين من قبل، ولا شكّ أنّ الله سيعفو عني إن لم أقدِّم بعد ذلك؛ لذا سنتوقّف عن توزيع القمح على الفقراء أيضًا.

هكذا قال العمّ فرحات، وزاد حرصه على المال منذ ذلك اليوم، فكان أول حرصه تغطية الزرع بأكياس أحْضرها من المدينة؛ لئلا تأكل الطيور منه؛ وأصبح قمح العم فرحات محفوظًا منها، وعلت أصوات الأكياس مع هبوب الرياح، فكانت الطيور تخاف ولا تقْترب منها، وتذهب إلى الزُّروع الأخرى، ولم يكتفِ العم فرحات بذلك بل أصبح يُخزِّن المحصول في مكان سِرِّيٍّ دون أن يشعر به أحد بدلًا من أن يوزِّعه على الناس.

لاحظ القرويُّون هذا التَّغْيير الذي أصابه منذ بدايته، ولم يستطع المارَّة تفسيرَ سببِ وضع الأكياس الملوَّنة، لكنَّهم عندما رَأَوا هذا الرجل المسنَّ المعروف بحبِّه للخير لم يَعُد يتصدَّق على المساكين بشيءٍ؛ أخذوا يسألونه:

- ما الأمر يا عمّ فرحات؟! ما الذي أصابك؟! لِمَ تغيّرت؟! هل لدَيْك مشْكلة؟! لِمَ غطَّيْت الحقل بأكياس؟!

أخيرًا أجاب العمّ فرحات عن هذه الأسئلة، وأخذ يشْرح الأمرَ للقروِيِّين في مقهى "عم رجب":



-أصابني مرض، ولم أعد قادرًا على العمل، وأخشى أن

ألزم الفراش من هذا المرض أو أن أحبوَ حبوًا إلى منزلي، فأنا

أحتاط من الآن لئلا أقع في حاجة أحد، اعذروني أرجوكم.

صمَتوا جميعًا، ودُهِشوا لِما سمعوا، ثمَّ علا صوتُ رمضان:

- هـل غطَّيـت الحقـل بالأكياس يا عم، لئلا تأكل الطيور من القمح؟!

- نعـم، تعلـم أنَّ الطيور تـأكل من الزروع كثيرًا عندما يكون القمح رطبًا.

انزَعـج رمضـان، وسـكت العـمّ فرحـات، ثـم نهـض بهـدوء وتوجَّـه نحـوَ الباب، وعندما وصل إلى عتبة الباب، امتلأت عيناه بالدموع، ثمَّ عاد حزينًا، وقال:

- اعذروني.

ثمَّ غادر المقهى.

وبينمـا هـو يسـير نحـو المنْـزل، إذا به يقابل "سـعيد"، فسـأله "سعيد" والحياء ظاهر في وجهه:

- يـا عـمّ فرحـات! هـل لـك أن تعْطيَني غِرارتيـن من القمح عند الحصاد؟

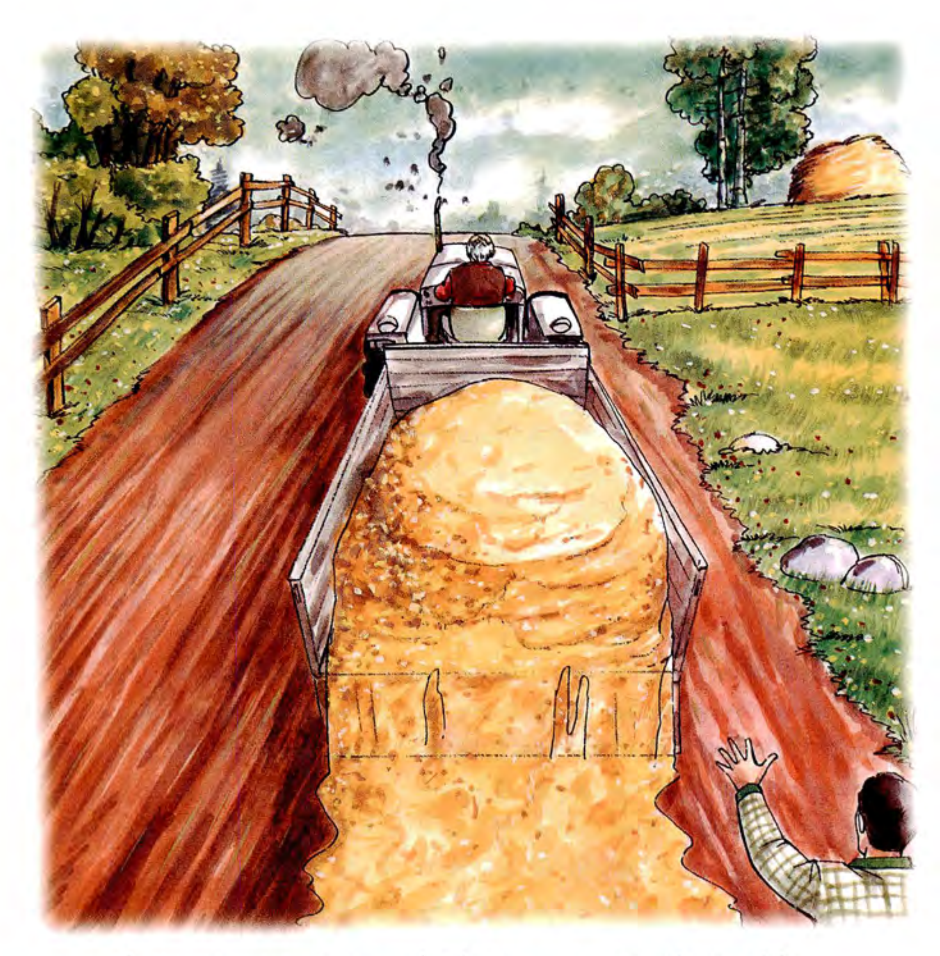
لـم يسـتطع العـمّ فرحـات أن يقـول كلمـة "لا"، فكـم أعطـى المحتاجيـن! ولـم يقـل يومًـا من الأيـام لأحد: لا! لكـنَّ الأمر قد اخْتلفَ الآن، فتَظاهَر وكأنَّه يُفكر، ثمَّ قال:

- سنرى حين يأتي وقت الحصاد.

مرَّت الأيامُ، وحان موسِمُ الصيف، واصْفرَّت السنابل، ونضج القمح، وبدأ أهل القرية بالحصاد، فحمل العمّ فرحات محصولَ القمح إلى صندوق جرَّاره، ولم يترك على الأرض حبَّة واحدة، ثم ركب الجرَّار، وهو مهموم يُفكر في المحتاجين الذين ينتظرون نصيبَهم مِن محصولِه كلَّ عام، ولا شكَّ أنَّ بعضَهم سيطلب منه قمحًا، فماذا سيقول لهم؟

ثمَّ رأى ألَّا ينقلَ القمحَ إلى القرية، وأنَّ الأفضل أن يأخذه إلى سوق البلدة ويبيعه هناك، ويعود إلى القرية بالنقود بدلًا من القمح، وبينما كان يصعد إلى التلِّ فكَّر مَنْ هو الرجل المناسب الذي سيأتمنه على النقود التي كسبها؟! ثمَّ قرَّر أن يعطيَها لزوج أخته حسين، فهو غنيٌّ ليس بحاجة إلى المال، ويستطيع أن يأخذَها منه متى شاء، لكنَّه رأى تحت ظلِّ شجرة الدُّلْب عثمانَ ينتظره، فقال:

يا إلهي! ماذا سأفعل الآن؟!



كان عثمـان يقـف فـي بداية الطريق ينتظر العمّ فرحات، لكنَّ العـمّ نظـر بعينيه إلـى مُقدِّمة الجرَّار مُتظاهرًا بالشـرود، ومرَّ أمامه متجهًا نحو جراره، صرخ عثمان:

- يا عمّ فرحات! توقَّف توقَّفْ! القمح القمح!!

زاد العمّ فرحات من سرعته، وارتفع صوتُ الجرَّار أكثر من صوت عثمان، ووصل إلى التلّ، واختفى عن الأنظار، ثمَّ ذهب إلى السوق، وما إن نظر إلى عرَبَة الجرَّار حتى وقف في مكانه:

- يا إلهي! ما هذا؟!

نزل من الجرَّار بسرعة حتى كاد يسقط، فقد كان باب العربة الخلفيّ مفتوحًا، ولم يبق فيها إلا قليل من القمح، صاح العمّ فرحات مُتألِّمًا:

- وا أسفاه! نسيت أن أغلق الباب جيِّدًا من عجَلَتي.

لم يعد العمّ فرحات قادرًا على الوقوف من حزنه، وكانت يداه وقدماه ترتجفان، فاتَّكأ على العرَبة، واجتمع الناس حوله وسألوه:

- ما الذي حدث؟!

فأجاب:

- لا شيء.

إنَّ القمح الذي كان في الصندوق وقع أثناء صعوده التلَّ،

ثمَّ ركب العم فرحات الجرَّار، ورجع من الطريق الذي أتى منه، وهو يضرب بيده على ركبته متحسِّرًا.

- من الذي أعطاك القمح؟! وعلى مَن بخِلْتَ به؟! هل رأيْتِ يا صدّيقة ماذا حدث؟!.

كانت عيناه تحترقان ألَمًا وهو يبكي، ودموعه تَتَطاير إلى الخلف كلما هبَّت الرياح، ولم تتوقف دموعه طُوال الطريق، ثمَّ وصل إلى بداية المنْحدر أخيرًا، ولم يُخْطئ ظنُّه فقد نظر إلى الأسفل فوجد الطريق مملوءًا بالقمح عند المنْحدر الذي توقَّف فيه.

كان عثمانُ مشغولًا بجمْع القمح على الطريق بمكنسة صنعها من أغصان الشجر، لكنَّه توقّف عندما أتى العمّ فرحات، ومسح بيده العَرَق عن جبهته، أوقف عم فرحات الجرَّار، ونظر بألمٍ إلى وجه عثمان الذي يتصبَّب عَرَقًا، ثمَّ إلى القمح على الطريق، فرأى النمل الأسود يحمل القمح بنشاط.

عثمان:



- لقد مررتَ من جانبي، ولكنَّك لم تنتبهْ إليَّ، وصرخْتُ بأعلى صوتي قائلًا: أكياس القمح تتساقط، لكنَّك لم تسمعْ ولم تنظرْ وراءَك؛ لأنَّك كنت تقودُ الجرَّارَ، فَبِمَ كنت تفكِّر؟!

ألقى عم فرحات بنفسه على الأرض، وأدخل يدَيه في تلِّ

قمح صغير كان عثمان قد جمعه، ثم رفع رأسه قائلا بحزنٍ شديد:

- لقد انتبهتُ يا عثمان! انتبهْتُ إليك ولكنَّ تفكيري في مستقبلي أَعْمَى قلبي، فجاوزْتُك ولم أَلْتَفِت إليك، لقد سمعت صوتَك أيضًا، ولكنَّني ظننْتُ أنَّك تطلب قمحًا فلم أتوقَّف، كنت أنوي أخْذَ القمح إلى السوق لأبيعَه، ولكن الله أراد أمرًا آخر، انظر إلى حالي يا عثمان، كان الناس يقولون:

- إنّ البركة تنزل على هذا الرَّجُل، والآن انظر ماذا فعل الله بي!

نظر عثمان إلى العمّ فرحات، وهو يتابع حديثَه:

- ظننْت أنَّ هذا المحصول لي، لكن تبيَّن لي أنَّ فيه حقًّا للطيور والمحتاجين، والآن لم يعُد هذا القمح رطبًا طيبًا كما كان قديمًا، ولن تأكل الطيور منه، انظر، فحبات القمح أصبحت في يد النمل ومساكنِهم، انظر كيف سلبني الله ما لا أملكه.

وراح العمّ فرحات يُتابع النمل مدَّةً من الزمن، ثم اقترب من عثمانَ، وقال له:

- اصنع لي مكْنَسة، وتعال لنجْمع القمحَ قبل أن تغيب الشمس.

أسرع عثمان، وصنع مِكْنَسة وأعطاها للعمّ فرحات، ثمَّ بدآ يجمعان القمح على الطريق المرْصوف، وبينما هما يجمعان القمح قال عم فرحات لعثمان:

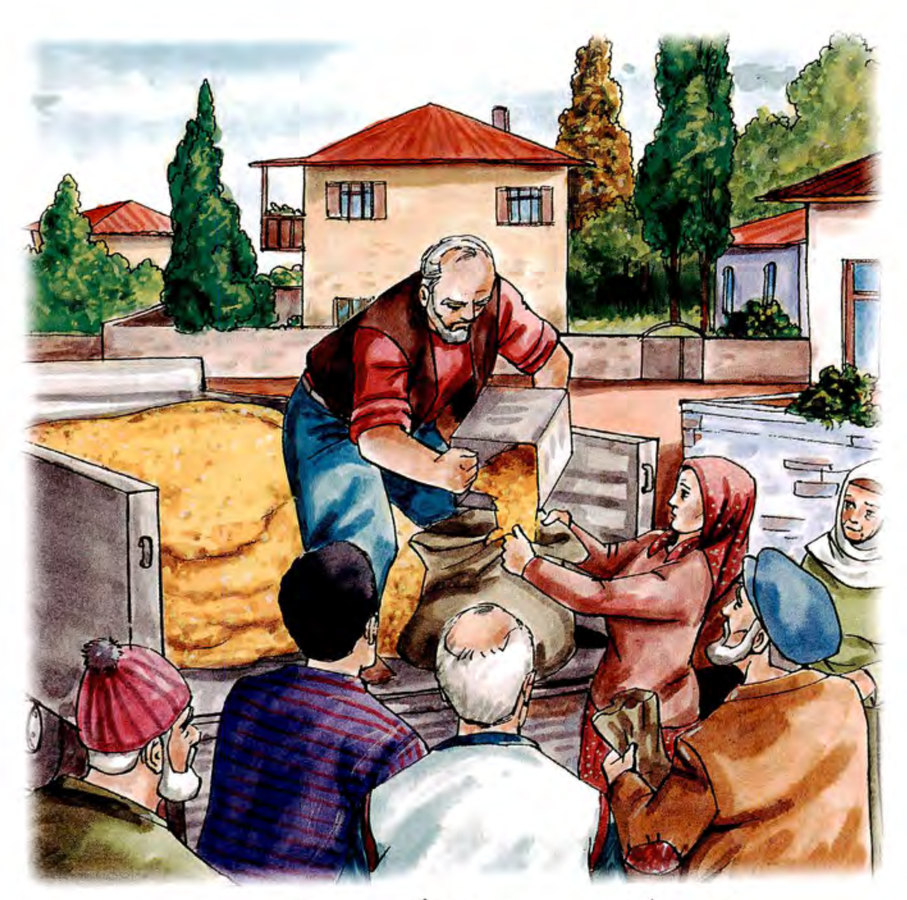
- لا تؤذِ النمل يا عثمان، فهو يأخذ نصيبَه.

ولما حلّ المساء حمل كلاهما القمح على عربة الجرَّار، ثمَّ ركبا معًا، لكنَّ العمّ فرحات لم يعد يبخل بالقمح كما كان يفكِّر، ولما وصَل إلى القرية، ترك العرَبَة في الساحة، ونادى أهلها:

- من كان مُحتاجًا فلْيأتِ، ولْيأخذْ نصيبه من القمح، وإذا رأيتم فيه بعض الحجارةِ والرِّمال، فصبُّوا عليه الماء ونظِّفوه، ومَن أراد قمحًا نظيفًا أيضًا فليأتِ إلى منزلي.

انطلق بعض أهل القرية نحو منازلهم لإحضار الغرائر، وانطلق عثمان معهم أيضًا، وصَعَد آخرون منهم إلى صندوق العربة.

دنا رمضان من العمّ فرحات، وقال:



- أنسيْت أنَّك مريض يا عمّ؟! أَبْقِ بعض القمح لنفسك، لِمَ تنفق كلَّ هذا؟! فكِّرْ قليلاً بمستقبلك، كيف سيكون حالك إن وزَّعْتَ القمح كلَّه؟!

تبسَّم العمّ فرحات بعد ما رأى أهل القرية مشغولين بتعبئة الغرائر من الصندوق، ثمَّ قال:

- معك حقٌّ، أنا مريض، ولكنّي سأصْبر؛ لأنَّ الله تعالى حكيم في أمره، والمرض الحقيقيّ هو الشحُّ، إنَّه مرض مُؤلم أكثر من أي مرضٍ، وأما مستقبلي فلن أنساه أبدًا، إنَّ مستقبلي هو الآخرة، هل تصدِّق أن تفكيري بمستقبلي هو الذي يجعلني أوزِّع قمْحي على هؤلاء المساكين؟!

دُهش رمضان، وانطلق نحو منزله، وهو يُفكر في القمح الذي بمخزنه، إنَّه يَزيد كثيرًا عن حاجته، وحدَّث نفسه قائلاً:

- هل أُعطي المحتاجين من قمحي زيادةً على ما أعطيتُهم؟ لا، لقد أعطيت ما يكفي، ولكن ماذا لو أعطيْتُ غرارة أو غرارتين أيضًا؟ لا حاجة لهذا، سأعطيهم في العامِ القادم.

ثم توقَّف والتفت إلى الوراء، وجعل ينظر إلى العمّ فرحات تارة، وإلى أهل القرية تارة أخرى، ثم تابع سيره مرة أخرى، وهو يقول:

- الأفضل أن أستشير زوجتي، ولكنّني سأسألها قبل ذلك عن مفهوم كلمة "مُستقبل"، ثم سأشاورها في هذا الأمر.

وفي هذه الأثناء قَدِم قَرَويّ نحو الصندوق، والحزن بادٍ

علـى وجهـه، وجعـل يتلفَّـت حوله يمينًا وشـمالًا، فانتبه إليه العمّ فرحات، وناداه قائلًا:

- هيَّا معي، إنَّك محظوظ أكثر منهم؛ فسأعطيك من قمحي النظيف.

فرح القَرويُّ فرحًا شـديدًا، وانطلقا معًا، فصار العمّ فرحات كلما نظر إلى شـيء في الأرض أو في السـماء رآه يبتسـم له؛ إنَّها سَـعادة العطاء، إنَّه المسـتقبل الحقيقيّ، وفهِم العمّ فرحات معنى دعاء الملائكة في كلّ صباح:

"اللهم أعطِ منفقًا خَلَفًا، وأَعْطِ مُمسِكًا تلفًا."



التسابق فى الخير

استيقظت "خديجة" من نومها عندما تسرّب الضوء إلى الغرفة من فتحةٍ أسفل الباب، وحاولت أن تعرف كم الساعة، لكنَّ ظلْمة الليل حالَت دون رؤيتها؛ فنهضت واتَّجَهت نحو الباب، وأخذَت الساعةَ من فوق الطاولة الصغيرة، وتقدَّمت نحو

غرفة الجلوس وهي تمشي على أطراف أصابعها، ثم توقفَت عند الباب ونظرَت إلى الداخل، فرأت زوجَها مُقَطِّبا حاجبيه، وهو مُتَّكئ على طَاولة عليها أوراق يبحث فيها، ثمَّ نظرت إلى الساعة في يدها، وقالت محدِّثةً نفسَها:

- الثالثة صباحًا! يا إلهي! إلى متى سيظَلُّ الوضعُ هكذا؟!

عادت "خديجة" إلى غرفة النوم واستَلْقَتْ على فراشها مرَّة أخرى، وأخذَتْ تضرب بعض أصابعها ببعض ضربًا يُشْبِهُ دقَّاتِ الساعة، وراحت تتكلم وكأنها توبِّخ بكلماتها ظلامَ الغرفة، وقالت:

- إنه لم ينم منذ أربع ليالٍ، وصار ليله كنهاره، ثم وضعت الساعة تحت الوسادة، وغطَّت رأسها، ودعَت ربَّها: اللهمَّ أعن زوجي على السير في سبيلك، ولا تقطع رجاءه بك.

انتبهت على صوت باب الدار، فنهضت واتَّجهتْ نحوَ المجلِس، ورأت النورَ فيه، فوقع بصرها على أوراق كانت على الطاولة، فأرادت أن تقرأ ما فيها، فإذا بها تجد حروفًا مُتلاصقة، وكأنَّها قد كُتبت بسرعة:



- الحديد	:	٥٠٠ جنيه.
- السجاد	:	٦٠٠٠ جنيه.
- الفُسَيْفساء الزُّجاجِية	:	٢٥٠ جنيهًا.
- الخَزَف الصِّيني	:	٥٠٠٠ جنيه.
- الجَصّ	:	٣٠٠٠ جنيه.
- القُبَّة	:	٣٠٠٠٠ جنيه.

أعادت الورقةَ إلى مكانها، ونظرَت إلى طرف الطاولة الآخر، فرأت ورقة أخرى في المصحف الشريف، أخذتْها فإذا فيها كلام ليس كذاك الذي في تلك الأوراق، وراحت تقرؤها فإذا فيها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَة: ٩/٨١].

أزاحت ستارَ النافذة، ونظرَتْ إلى المسجد، ثمَّ أسندَتْ جبهَتها على الزُّجاج مُتبسمةً، وتذكرت حديثَ زوجها أثناء طعام العشاء:

ـ سترَيْن يا خديجة، سترين، لن يمرَّ شهران إلّا وصوت الأذان يرتفع مِن على تلك المئذنة.

ـ إنْ شاء الله.

ـ لا شكَّ، كلّ شيء بمشيئة الله، صدِّقي أنَّني أتألم من هذا الوضع كثيرًا، أليست هذه القرية قرية مسلمين؟! كيف يكون مسجدنا بغير إمام؟! لماذا لا يُسمع صوت الأذان من مئْذنتنا؟! لماذا لا تُزيَّن سماء قريتنا بأصوات التَّكبير؟!

- اصبرْ يا زوجي! إن شاء الله سنسمع الأذان .

- لقد وعدَنا المفتي أن يُرسل لنا إمامًا -مهما كلّفه هذا الأمر- إذا أصلحْنا القبّة التي قاربَتْ على السُّقوط، لكنّنا سنَجد لها حَلًّا قبل حلول شهر رمضان؛ لكي نستيقظ على صوت الأذان عند صلاة الفجر.

كان سيف الدين يتقلّب على فراشه قلِقًا، وأحيانًا يضيق صدره فلا يستطيع أن يتنفس، فينهض ويتجوّل بين المجلِس والمطبخ، ثمّ يعود مرّة أخرى لِيَستلْقي على فراشه.

همس قائلًا: يا إلهي! يا لها من مصيبة!

ثمّ سَمع صوتَ الباب يُطرق، فنهض من الفراش وفتح الباب:

- علي إحسان! ما الأمر؟!

- لم أستطِع النومَ يا أخي! وإذا كنْت قد أزعجْتك بقدومي فسأعود فورًا.

قال سيف الدين بقَلق:

- لا شيء، لقد جئْت في الوقت المناسب، ادخل.



تنفَّس علي إحسان الصُّعَداء، ونظر إلى صديقه وقال:

- أنا خائف يا سيف الدين.

- وممَّ تخاف؟!

- ماذا سنقول لأهل القرية إذا فشلنا في هذا الأمر؟!

لم يُجبْ سيف الدين، ونظر بعينيه بعيدًا، وهو يسمع صرير الجراد، وكان الهواء نقيًّا يُضفي على ليالي شهر أغسطس جمالًا رائعًا، ثم قال:

- لن يُصدِّق أحد أنَّه يُمكن أن يُرمَّم المسجد خلال شهرين؛ ولهذا فلا أحد يُحرِّك ساكنًا، من أين لنا أن نجمع المال؟! ماذا سنفعل فشهر رمضان يقترب؟ ولو أنَّنا لم نهدم القبة لتمكَّنَ أهل القرية من إقامة صلاة التراويح في المسجد على الأقلِّ، هل أخطأنا بهدمها يا سيف الدين؟!

لم يسمع سيف الدين غير كلمة "أخطأنا"، فالتفت إلى صديقه:

ما الذي تقوله؟! إياك أن تتفوَّه بهذا مرَّة أخرى، لقد بدأنا هذا الأمر ونحن واثقون بالله، وسوف نتمِّه بإذن الله، يُمكنك أن تقْلق وتبقى مهمومًا، لكن لا تقلْ "أخطأنا"، هل تريد أن تعرف ما هو الخطأ الحقيقيّ؟ إنَّنا أهملنا بيتَ الله ووجَّهنا اهتمامنا إلى بيوتنا، فدع التفكير في أهل القرية، واجعل همَّك الوحيد أن تحظى بالنظر إلى وجه الله الكريم.

ندم علي إحسان أشدَّ الندم، وقال:

- أنت مُحقٌّ يا أخي.

وضع سيف الدين يده على كتف صديقه، وقال:

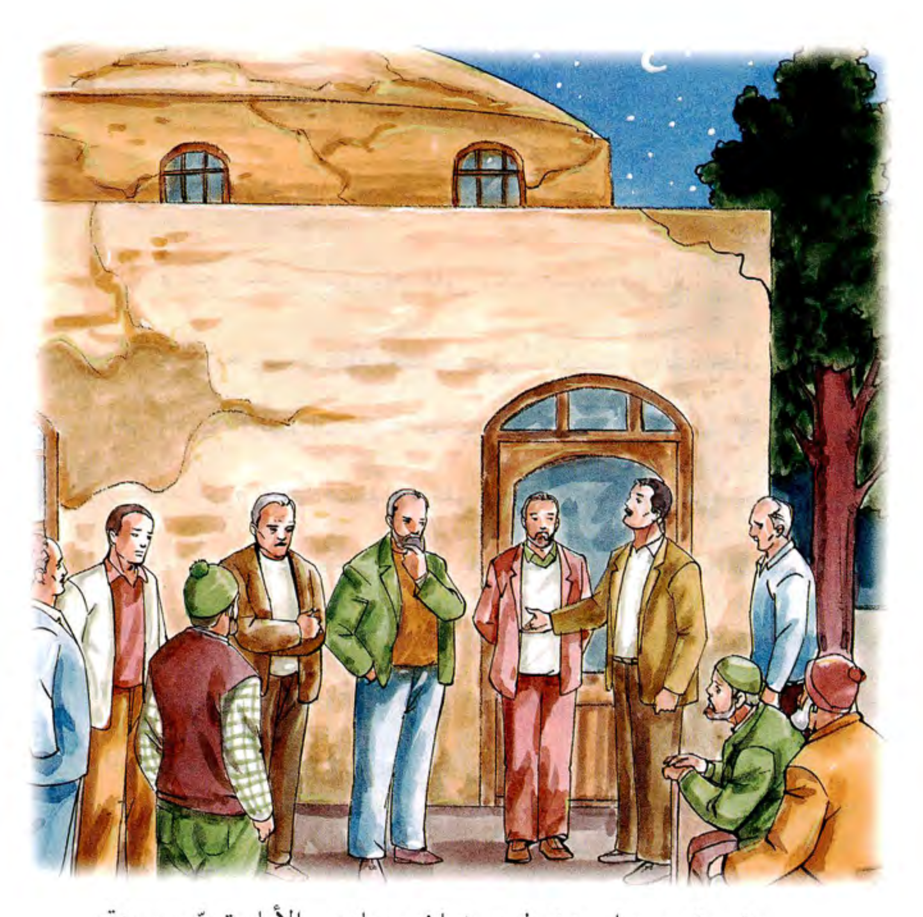
- لا تحزن، إنَّ الله معنا، ينبغي أن نقف برباطة جأش أمام أهل القرية؛ فإنَّهم إن رأَوْنا خائفين فسيقصِّرون في هذا الواجب، لنتعاهدْ لنبرم عهدًا جديدًا يا علي إحسان لتتفاعل القرية جميعها معنا، وستنزل البركات عليها بعد ذلك بلا شكّ، إنَّ أهلنا أهل صفاء ونَقاء، وإنَّا إن شجّعناهم فسيَفيضون بالخير، ولن تسعَهم الدنيا من الحماس، اصبر وكن على يقين أنَّهم إن آمنُوا واقتَنعوا فلن يتردَّدوا في العطاء ولو كانوا فقراء.

انشرح صدر علي إحسان قليلًا، وابْتسم، ثم قال:

- دَعْكَ من هذا، فالصَّباح رَباحٌ، ومن يعلم الغيبَ؟! اذهب إلى فراشك، ولقاؤنا غدًا إن شاء الله.

هزَّ علي إحسان رأسه، وقال:

- الصباح رباح كما قلت، ثم عاد من الطريق الذي أتى منه، حتى اختفى في الظلام الدامس.



بقي شهر على دخول رمضان، وها هي الأيام تمرّ بسرعة، وكلما مرّ يوم قام علي إحسان إلى التقويم فقطع ورقة ذلك اليوم.

أعدَّت أسرة علي إحسان طعام العشاء، وجلسَت حول المائدة، وزوجته خديجة تسترق النظر إليه، والطفلتان الصغيرتان تجلسان بهدوء لأوَّل مرة عند طرف المائدة، والملاعق تتحرَّك

فـي أطبـاق الحَسـاء من غير أن تُرفـع إلى الأفواه ولو مرَّة واحدة، وعلي إحسان شارِد في زخارف المائدة.

قالت زوجته:

- زوجي! أُفضِّل أن يُعاينك طبيب، انظر إلى فمك الجريح! لقـد سـرَت جراحـه إلـى عنقـك وشـفتيك أيضًـا، وأصبحْـتَ لا تقـدر علـى ابتـلاع ريقـك، إنَّنا نحـزن لوضعك هـذا، زوجي! هل تسمعني؟!

رفع علي إحسان رأسَه، وقال:

- عذرًا يا زوجتي! ماذا كنتِ تقولين؟

- إنَّ الطفلتين تتابعانك منذ أن بدأنا نأكل، فأنت لم تأكلْ إلا لُقَيمات؛ لذا لم تذوقا الطعام قط، وأنت تعلم طبعَهما.

تمتم علي إحسان قائلًا:

- نعم، أنا أعرف طبعهما.

حاول أن يبتسم في وجه الطفْلتين وهما تنظران إليه بنظراتٍ حزينة، ثـمَّ عبَس بوجهـه من ألـم الجرح في شـفتيه، وحاول كتْم ألَمه ضاغطًا على أسنانه، وابتلع ريقه بصعوبة:

- اعذراني يا ابنتيَّ! فأنتما ترَيانِ حالي، ولا تحزنا عليَّ، فأنا مريض بعض الشيء، كُلَا طعامَكما، هيَّا هيَّا.

لـم تتحـرّك الطفلتـان، وقطـع رنيـنُ الهاتـفِ هـدوءَ المائـدة، فنظرت السيدة "خديجة" إلى ابنتها الكبيرة:

-"سعاد"! رُدِّي على الهاتف بسرعة يا بُنيَّتي.

نهضَت "سـعاد" والكآبة تُرسـم على وجهها، وسـارَتْ ببطء نحـو الهاتـف، فرفعـت السَـمَّاعة، وفجـأة ظهـرَت علـى وجههـا علامات الفرح:

- خالـي العزيـز! اشـتقنا إليـك كثيـرًا، متـى سـتأتي؟ إنَّ أبـي مريـض مرضًـا شـديدًا يا خالـي! والجروح تمْلأ فَمَـه، ولـم يَنَم ما يقرب من أسبوع؛ لأنَّه مُهتمٌّ ببناء المسجد، وليس لديه مال يكفيه لذلك، فهل أستطيع أن أقترض منك في العيد مبلغًا كبيرًا أعطيه لأبي يا خالي وأنا سأردّه لك عندما أكبَر؟

قطَّب علي إحسان حاجبيه، وعاتب خديجة:

- لماذا أخبرْتِ الأطفال؟!

أرادتِ السيدة خديجة أن تجيبه، لكنَّ سعاد نادته:



- أبي العزيز! خالي يريد أن يتكلم معك.

نهض علي إحسان، وأخذ السماعة من ابنته:

- مرحبًا يا دُرْمش! لا تسمع ما قالَته هذه الفتاة المجنونة، فهي تبالغ في الأمر، أخبرني كيف حالك؟

ثـمَّ سـأله دُرْمـش عـن أمر المسـجد، فشـرح علي إحسـان له الأمر بالتفصيل، فقهقه حاتم قائلًا:

- هـل جُننـت يـا صِهـري! لا تجعل ترميم المسـجد مُشـكلة حياتك، يمكنك أن تصلِّي في بيتك.

لم يستطع علي إحسان أن يجيبه؛ وضاق صدره بهذا الكلام أكثر، لكنَّه لم يُظْهِر انزعاجه، ثم أنهى مكالمتَه وجلس على طرف المائدة مُعاتبًا:

- وأنـتَ أيضًـا! كأنَّ النـاس لن يتركوني حتى أصبح سُـخرية للقاصي والداني، فهو يُشعرني أنَّني مجنون القرية، ولقد أزعجني ضحكه أكثر من أيِّ شيء آخر، لكنَّني تمالكْت أعصابي بأعجوبة.

وضعت السيدة خديجة يدها على كتف زوجها:

- اهـدأ ولا تنفعـل! فـحاتم طيـب فـي الحقيقـة، صحيح أنَّه يتكلـم كلامًـا قاسـيًا أحيانًـا، إلا أنَّ قلبَـه طيب، وأنـا مُتأكِّدة أنَّه لم يقصد أن يجرحك.

هدأ علي إحسان قليلًا، ونظر إلى بناته وقال:

- إنكن محظوظات؛ فخالكنّ سيأتي إلى القرية في العيد، والله أعلم بما سيحضره لَكُنّ من ألمانيا!

ابتسموا جميعًا، وسمّوا باسم الله ثم غمسوا ملاعقهم في الحساء.

في اليوم التالي تقابل علي إحسان مع سيف الدين أمام المسجد الذي ما زال بلا قُبّة، وبادَرَهُ بالكلام:

- ينبغي ألا تبْقى هذه القرية بدون مسجد وإمام؛ لِمَ لا تكون همّتنا كهمّة أجدادنا وآبائنا، فقبل ستين عامًا عمّروا تلك الجدران بالحجارة الضخمة يا سيف الدين! لا أدري كيف استطاعوا حملها إلى القرية رغم ضعف إمكانياتهم!

اتّكأ سيف الدين على كَتف صديقه، وقال:

- كانوا على قلب رجل واحد، وتفرّغوا لبناء المسجد حتى اكتمل، وعملوا بكلّ طاقتهم حتى نقلوا تلك الحجارة.

أطرق علي إحسان رأسه، وقال:

- انظر إلى حالنا، كأنّنا لسنا أحفادهم! قلوبنا مريضة، ولا

نقدر على ترميم ما بنوه لنا، فكيف نقدر على بنائه من جديد؟ وا عجبًا! لماذا لا نصبحُ كأجدادنا وآبائنا؟! إنَّ حالهم هذا يدفعني كثيرًا إلى معرفة شعورهم الآن وهم في قبورهم، أظن أنهم يشتاقون الآن لسماع صوت الأذان.

ضحك سيف الدين، فنظر إليه عَلِي إحسان متعجّبًا:

- خيرًا، هل قلْتُ شيئًا مُضحكًا؟! لماذا ضحكْتَ؟!

- لا يا صديقي العزيز، لكنّي أريد أن أخبرك بأنَّ صديقنا مصطفى اتصل بي بعد العصر، وأخبرني أنّه قادم في طريقه إلينا.

- وما المضحك في ذلك؟

- اسمعني، لا تقاطع كلامي، بالأمسْ اتصل صهرك حاتم بمصطفى من ألمانيا، وتشاوَرا في أمر المسجد، ولا أدري من أخبرهما بالأمر! وقالا: إن كنا مقصِّرين في عبادتنا فلنساعد -على الأقلِّ- المخلصين في صلاتهم"، ثمَّ اتصلا بـ"كريم" في ألبانيا و"تحسين" في فرنسا وأخبراهما بالأمر، وأرى أنَّ المغتربين من أهل القرية هم من سيهتمُّون به، وأنَّه قد حانت ساعة العمل فيه.

لم يكد علي إحسان يُصدِّق ما سمعه، ولكنَّه كان يعرف أنّ صديقه سيف الدين لا يكذب ولو كان مازحًا، فلم يجد ما يقوله إلا الحمد والشكر لله الذي سخّر العِبَاد لخدمة العُبَّاد، ثم قال:

- عاش حاتم، عاش حاتم.

سار سيف الدين، وهو يُمرِّر يديه على جدران المسجد شغفًا وشوقًا إلى الأمل المنشود، وهو يقول:

- اللهم لك الحمد كلّه، ولك الشكر كلّه؛ فهذا حاتم سيتحمل ثمن النَّوافذ والزجاج، ومصطفى ثمنَ الحديد، وكريم ثمنَ أجود أنواع السجاد، وتحسين الفرنسيّ ثمن الجِصّ والفُسَيْفُساء والزجاج، وسيتصلون بالمغتربين من أبناء القرى المجاورة ليُكمِلوا بناء بيت الله.

انتشر هذا الخبر بين أهل القرية في اليوم الثاني، ودبَّ الحماس في القلوب، وبدأ التنافس بين أهلها، فوضع فؤاد بائع الفُلَيْفلَةِ ألفين وخمسمائة جُنَيْه بين يدَي علي إحسان، وجميل بائعُ الخيول ألف خمسمائة جُنَيْه وأحضر معه العُمَّال أيضًا.

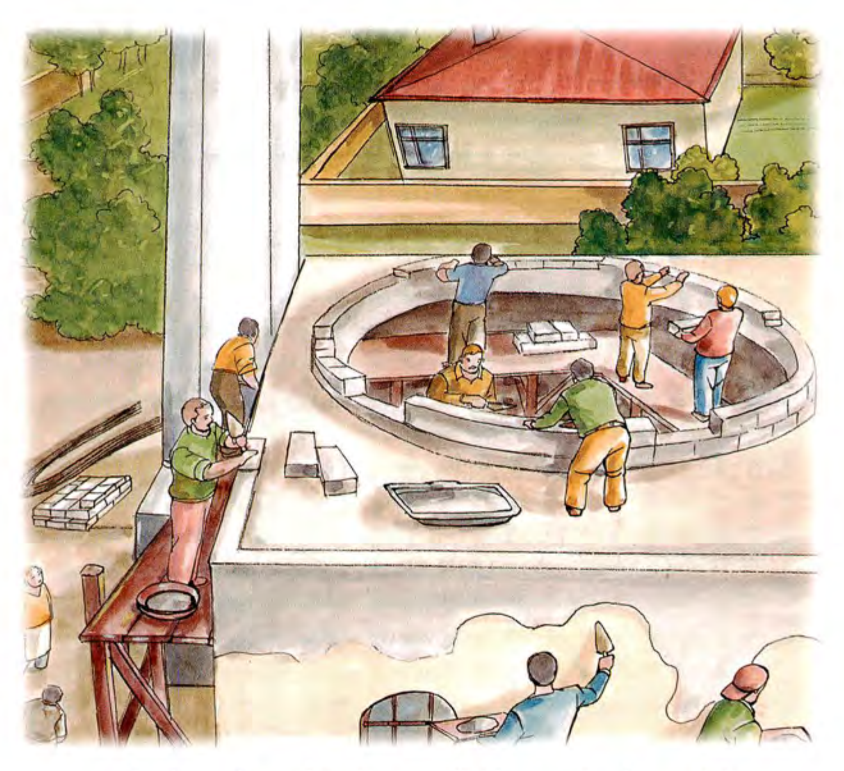
بدأ أهل القرية عملهم في المسجد بنشاط، وكانت الأيام تمرُّ من غير توقُّف في العمل، بل إنَّهم وضعوا مصباحًا ليستمرَّ العمل إلى منتصف الليل.

وبدأت المساعدات تأتي من القرى المجاورة أيضًا، فقد أرسل العم بهاء الدين مع ابنه إبراهيم ثلاثةَ آلافِ جُنَيْهٍ من قرية حسن حصار، وقال: إن أردتم شيئًا آخر، فنحن مُستعدُّون لتقديم ما تحتاجونه ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وما عليكم إلا أن تخبرونا بذلك.

وعندما رأى أهل القرية كثرة المساعدات التي تأتي من المدن والقرى المجاورة؛ ازداد حماسهم أكثر من قبل.

أبلغ عليَ إحسان أهل القرية أنّ العمال بحاجة إلى شجرة حور، فاختفى الحاضرون ثم رجعوا بها خلال دقائق.

كان حماس أهل القرية قد بلغ مُنتهاه، فكان بعضهم يساعد العُمَّال بالمعاول وآلات الحفر، وبعضهم يُوزِّع الماء عليهم إن لم يجد عملًا آخر.



شاهد سيف الدين هذا المشهد، ثمَّ قال: ما بُنِي هذا الجامع قبل ستين سنة إلا بمثلِ هذا الجهد.

انتبه علي إحسان فجأة فوجد داوود يدور حولَه مرارًا، وكأنَّ بنفسه شيئًا يريد أن يقوله، فتأوَّه داوود مُتحسِّرًا:

- إنَّني لا أملك الآن نقدًا يا أخي! ولكنْ عندما أبيع الشمندَر فسأتبرَّع بسبعمائة جُنَيْهٍ؛ لذا أرجو منك أن تستدين لي هذا المبلغ

من الناس فهم يستأمنونك كثيرًا، ثم خذه واستعمله في أعمال البناء، وأنا أُسدّده لك عندما أبيع الشمندَر.

تأمّله علي إحسان وجعل يرمقه بنظره من رأسه إلى قدميه، وتبسم لما رأى الصدق في وجهه، وقال:

- نحن مدينون لعامل التدْفِئة بثمانمائة جُنَيْهٍ، فإن أردْت سجّلْتُ هذا الدين عليك، وسدِّده أنت عندما يحين وقت الوفاءِ.

ظهرت الفرحة على وجه داوود، وقَبِل بهذه الفكرة، فقال علي إحسان بعد أن مشى داوود:

اللهم لك الحمد كلّه، ولك الشكر كلّه.

ثمَّ قرأ مرَّة أخرى آية كثيرًا ما كان يردِّدها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/١٨].

فتحت السيدة خديجة عينيها على صوت الأذان عند الفجر لأول مرّة، فأطلّت على المسجد من النافذة، وتأثّرت كثيرًا عندما رأت أضواءَ المئْذَنة، ونادَت زوجها:

- زوجي استيقظ بسرعة!

فتح علي إحسان عينيه، ونظر إلى زوجته مُتعجِّبًا، وإذا بصوت المؤذِّن:

"الصلاة خير من النوم".

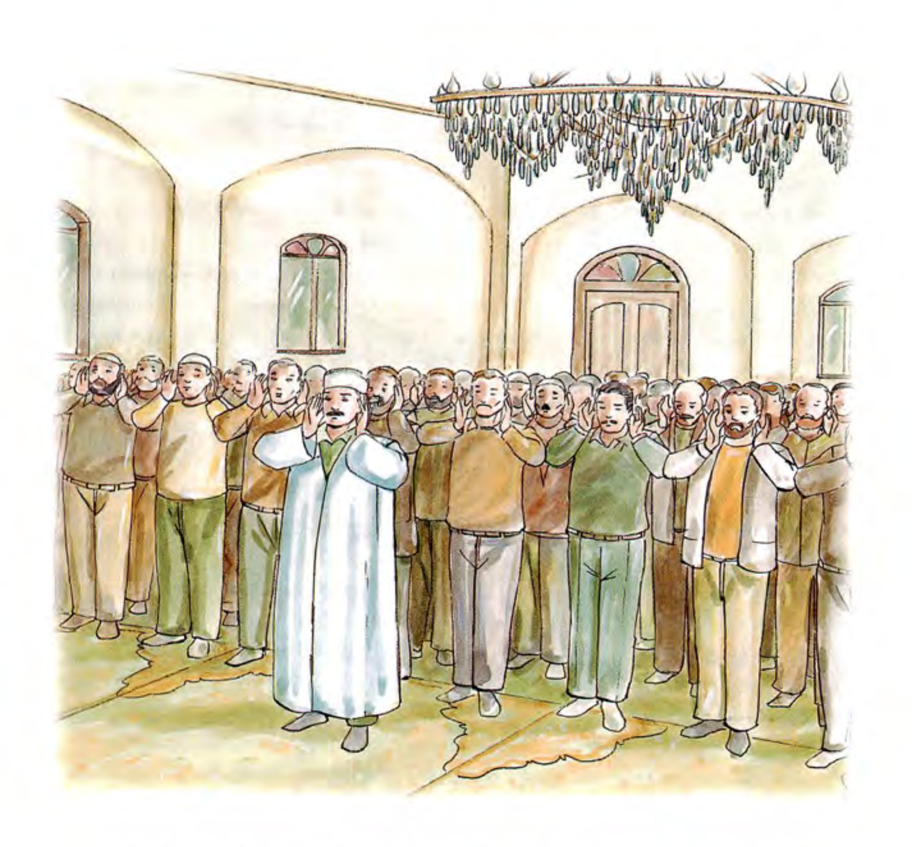
"الصلاة خير من النوم".

تأثَّر كثيرًا ونهض نحو النافذة، وامتلأ قلبه بالسعادة عندما رأى أضواء الجامع وقبَّته في أبهى الجمال، ثمَّ توضأ، وتوجَّه نحو المسجد وعيناه تدمعان، فرأى سيف الدين في ساحته يتوضأ من فِسْقيَّة الماء، فتبادلا التحية، ثمَّ قال سيف الدين:

- لقد اتصل مدير الأوقاف بعُمْدتنا بعد العِشاء، وأخبره عن شاب يافع حافظ للقرآن، وقال: إمام مسجدكم في موقف الحافِلات الآن، اذهبوا إليه ودُلُّوه على المسجد، وائتوني معه غدًا إلى مديرية الأوقاف لنتقابل.

فذهبوا ليأتوا به، ولم يعودوا إلى البيت إلا عند منتصف الليل.

دخل علي إحسان فرأى الإمامَ جالسًا أمام المحراب ينتظر إقامة الصلاة في جُبَّته البيضاء.



واستيقظ أهل القرية على صوت الأذان، وأسرعوا إلى الجامع فوجدوه قد امتلأ، واصطفَّ المصلُّون وهم ينظرون إلى الإمام في المحراب...

ورفع الإمام يديه حَذْو أذنيه، وكبَّر: الله أكبر!

رُفِعَت الأيدي، وقالوا جميعًا:

- الله أكبر!

ثـمَّ قـرأ الإمـام بعد سـورة الفاتحة نفس الآيـة التي كان علي إحسـان يردِّدهـا منـذ شـهرين؛ بيد أن الإمام قد سـمع مـن العُمْدة فـي المسـاء قصة ترميم المسـجد، وتأثَّر بها كثيـرًا... ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٨١].

كم كان صوت الإمام الشابِّ جميلاً، إنَّه يتلو الآيات وكأنَّها نزلـت للتوّ، فكان الخشـوع ظاهرًا على الإمـام والمصلين، وبعد أن أدى علي إحسان الصلاة ذهب إلى البيت عند طلوع الشمس، ودخل غرفة الأطفال ووقف عند رأس ابنته سـعاد، ومسـح على شـعرها وهـي نائمـة، ثـمَّ قبَّـل جبهتَهـا، وجلـس علـى الأرض، وهمس في أذنِها:

- لا دَيْنَ لخالكِ عليك بعد اليوم يا ابْنتي! فسوف يجزي الله المجنونَ حاتـم ومـن أسـهم معه الجنة على الجهْـد الذي بذلوه، وأرجو أن يكون أبوكِ من هؤلاء السعداء.



تبسمت سعاد وهي نائمة؛ ربّما كانت تنْعُم في منامها بجائزةِ

هذا الخير الذي كانت سببًا فيه.

ملاحظاتي حول الكتاب

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

أُحِبُّ رَسُولِي
(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

صدر حديثا...



22x22	سم
48	صفحة

هَذَا الْكِتَابُ يُسَاعِدُ الْأَطْفَالَ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى سِيرَةِ رَسُولِنَا الْكَرِيمِ وَقَلْبِهِ الرَّحِيمِ، فَتَعَالَوْا بِنَا نُرَبِّي أَنْفُسَنَا وَأَطْفَالَنَا عَلَى هَدْيِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).


لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ